أثر النص القرآني
في خطاب الإمام علي (ع)

الدكتور فايز ترحيني

توطئة

لم أدعُ يوماً إلى التقليد القاتل المميت أو المحاكاة الجافة، ففيهما تقوقعٌ واضمحلال فاندثار. ولم أدعُ أيضاً إلى تحطيم الأسوار والقفز في المجهول رغبة في التجديد دون تصورٍ لبناءٍ جديد، لأن التحطيم والقفز فوق المسلمات هو أيضاً فناء وزوال إذا لم يسبقا بأشرعة فكرية وشاقول بناء تشكل العالم أو نصيغهُ من جديد.

كل شيء في الوجود يتجدد، الكائنات جميعاً تتجدد، حتى الجماد يتخلق بهيئات جديدة، وتتشكل منها أشكال جديدة، والسَّبقة يجب أن تطاول الإنسان.

مسكين الإنسان، حمَّل نفسه ـ ربما ـ أكثر مما يستطيع احتماله، ولكنها الجرأة في التجربة، والرغبة في الخلود، قال تعالى: ﴿إنّا عَرَضْنَا الأمانَةَ على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وأشْفَقْنَ منها وَحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كان ظَلوماً جهولاً﴾. فجميع من وما في الكون أبى حمل الأمانة وأشفق على نفسه فرقاً منها، وظلم الإنسان نفسه جهالة بشأنها وعِظمها وقدرها. لكنه منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تكوين، شرع يسخر موجودات الطبيعة لإرادته، والله وحده يعلم إلى أي زمن سيرتضي خروج حركية الكون وأشباهها على إرادته إنه كان ظلوماً جهولاً.

تتردد في العالم اليوم أصوات تنادي بنظام عالمي جديد، يطاول السياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا، وربما كل ما له علاقة بالأنظمة الوضعية. ولست أدري ما هي الأسس التي سينفلق منها النظام العالمي الجديد. ولكني أدرك بحدس يقرب أن يصبح يقيناً أننا فعلاً بحاجة لوجود جديد، يشمل الخلق جميعاً: الشجر والبشر. الوجود الجديد بحاجة إلى «كروم لها جذور السنديان ورفاه في البيلسان» كما يقول خليل حاوي. وبحاجة إلى إنسان جديد

يختلف عنا لا بالشكل بل بالجوهر، إلى مخلوق يرفض ما علق بالورق العتيق والزمن العتيق والإنسان العتيق من أوهام وترهات.

نحن بحاجة إلى الرجوع إلى «العبارة البكر» و«البداية السمراء» التي تنطق بالأصالة لا التقليد، وتعبُّ من النبع الصافي وترفض الرشف من الثمد الخادع.

نحن مطالبون اليوم باستشراف المستقبل، مطالبون ـ أدبياً وربما أكثر ـ بتشكيل فكر جديد لإنسان جديد. مطالبون باقتراح منهجيات ورؤىً تعيد إلى الإنسان أصالته وعبارته البكر وجرأته، ومن هذا المنطلق أتطلع إلى خطابة الإمام علي«ع».

خطابة الإمام علي بن أبي طالب

لست معنياً بدراسة سيرة الإمام[1] في العمق والاتساع، فهذا الأمر يتطلب نصباً وجهداً لا أملكه الآن، فضلاً عن أنه قد يخرج الدراسة عما هو مقرر لمنهجيتها. ولكن بالرغم من ذلك لا بد من الإطلالة على ما يضيء بعض الجوانب المؤدية إلى خطابة ابن أبي طالب.

عاش ابن أبي طالب في كنف الإسلام، فكان أسبق الناس إليه بعد خديجة بنت خويلد زوج الرسول «ص»، وأول من صلى مع النبي من الرجال. تضرع درَّ الإسلام واستسقى مدره ولبنه، فاستأمنه الرسول ـ حين همَّ بالهجرة ـ وهو ابن العاشرة، مما حدا بالنبي إلى أن زوَّجه ابنته وقرَّبه إليه قائلاً له كما أخرج الترمذي (٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٢٤ ـ ٨٩٢م): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاَّ أنه لا نبيَّ بعدي»، وقال أيضاً: «ما تريدون من عليّ، إنَّ علياً مني وأنا من عليّ، وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة[2]. ونقل عن ابن مسعود (ـ ٣٢هـ/ ٦٥٣م) قوله: «إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف ما فيها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده علم الظاهر والباطن». وقوله: «قسمت الحكم عشرة أجزاء، فأعطي عليٌّ تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً»[3]. فرجل كعلي لم يعبد وثناً ولم يسجد لصنم، ولم يعرف إلهاً إلا الله، لا بد أن يتخلَّق بأخلاق الإسلام، وأن ينكبَّ على تمثل القرآن الكريم ببلاغته وبيانه وحكمته وقصصه وغير ذلك. وهذا ما حدا بالرسول إلى القول: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»[4].

وانطلاقاً من أن الصورة البيانية في القرآن تحمل حكماً تشريعياً، وترتكز إلى واقع وليس إلى تخيل أو وهم أو مبالغة كما هو الحال في الصورة غير القرآنية، فإن الرسول في

استعارته لكلمة «مدينة» إنما يعني أن الله ألهمه معرفة اقتصرت عليه وحده دون سائر البشر، وجعل علياً باباً لها. إذ لا يمكن الدخول إلى مدينة العلم والولوج إلى المعرفة إلا من خلال عليّ باب تلك المدينة. فالرسول الكريم استلهم المعرفة وأوصلها إلى عليّ، وجعله أميناً عليها مستوعباً لها، ناطقاً بعلومها ومعارفها، متمثلاً لدقائقها وتفاصيلها ومعاييرها وقواعدها البلاغية والبيانية.

فلا عجب في أن يكون عليّ بن أبي طالب إماماً يحتذى في علوم البلاغة والبيان جميعاً، ولا غضاضة في أن يجد المرء نفسه عاجزاً عن الإحاطة بكنه نهج الإمام البلاغي، ولا غرو في أن ينهد الشريف الرضي (٣٥٩ـ ٤٠٦هـ/ ١٩٦٤ ـ ١٠١٥م) لجمع تلك الخطب والرسائل والوصايا والمواعظ والحكم في كتاب أسماه «نهج البلاغة»[٥] تعددت شروحاته فزادت على الخمسين، وأشهرها شرح ابن أبي الحديد المعتزلي (٥٨٦ـ٦٥٦هـ/ ١١٩٠ـ١٢٥٨م). الذي جمع فيه ما يزيد على المائتين والأربعين خطبة، وما يقارب الثمانين رسالة ووصية، بالإضافة إلى أربعمائة وثمانين موعظة وحكمة.

وفي رحلتنا مع نهج البلاغة نجد أنفسنا أمام مستويين من التفكير: المستوى الفني ويتمثل في تسمية كلام الإمام «نهجاً» للبلاغة أو أنموذجاً ومعياراً وقاعدة لكل ما هو فني أو بلاغي. وتأتي أهمية هذا المستوى بما يرتبط به من معرفة إنسانية ميزت نتاج الإمام. فتحدث عن النفس البشرية والتربية والاقتصاد والسياسة والتاريخ والاجتماع وما يتصل بالمعرفة الإنسانية. والمستوى الآخر، هو المستوى الفكري الذي يدل على مدى البعد المعرفي البحت عند الخطيب، فتحدَّث عن نشأة الكون وظواهره المختلفة من سماء وأرض وكواكب وملائكة وبشر وحيوان وكل ما يرتبط بالمعرفة البحتة الخالصة.

وتزداد أهمية النموذج «النهجي» عندما ندرك أن الحديث عن الظاهرة العلمية إنسانية كانت أو بحتة، إنما تتم في العادة بلغة تقريرية، في حين أن الإمام صاغها بلغة فنية تستخدم الصوت والصورة وسائر الأدوات الجمالية، مما يجعل ذلك النتاج مطبوعاً بسمتي المعرفة والفن معاً. ومن ثم أضحى «نهجه» أنموذجاً للتعبير في مستوياته جميعاً في الزمان والمكان، ولا سيما أنه كان سباقاً في الميدان المعرفي البحت، وسباقاً في استخدام لغة فنية كانت مكثفة بشكل يحوّلها إلى لغة جمالية محضة، تغرق في

غـابـة من الصـور التشبيهيـة والتمثيليـة والاستعـاريـة والـرمـزيـة والاستـدلاليـة والتضمينية، وتحتشد بإيقاعات هائلة تطول كل مفـردة أو تـركيب، حتى لا تكـاد تجد مفردة أو تركيباً خالياً من إيقاع خاص مميز، فضـلاً عما يـواكـب ذلك كلـه من الأدوات اللفظيـة والبيـانية التي تطـاول كل مـدهش ومثير في المستويات جميعاً[٦].

ومرة جديدة أجـد نفسي مضطراً إلى القول أنني لا أبغي تتبع تلك الجمالات والمستويات الفنية والفكـرية في خطابـة ابن أبي طالب. كما أنني لا أستطيع تنـاول خطـابـة الإمـام ورسائله.

وانطـلاقـاً من هـذا الـواقع أجـد نفسي مضطراً إلى وقفـة مع خطب الإمام قـد تطول نسبيـاً، أمهـد لها بمقـدمة أقفـز فيهـا فـوق الزمن، مروراً بما يمكـن أن يكون أول خطبة رسمية دبَّجها الإمام في أوائل خلافته، مروراً بأهم الأنواع التي تناولها من دينية وعسكرية وسياسية.

أولاً: مقدمة في القفز الزمني:

قد يتملَّـك المرء العجب عندمـا يدرك أن خطـابـة الإمـام كـانت متقـدمـة على روح العصر، فهي تجاري النثـر الشعـري الـذي يعتمـد على التصـويـر والايقـاع واختيـار الألفاظ الموحيـة، لكن صاحبهـا لم يقسمها إلى فقـرات تقصر أو تطـول. أو هي تماثل الشعـر المنثـور لما فيهـا مـن نَفَس حماسي وألفاظ إيحائية واعتماد على التصوير، وإيقاع داخلي نـاشىء مـن ازدواج العبـارات، وتنـاسقهـا بشكـل مضغـوط ومنتقى، وفي صياغـة أفكارها وفـق رموز مكثفة ومـركَّزة، وفي إمكانية تقسيمها إلى سطور قصيرة تقابل أبيات الشعر، لكنها متفاوتة الحجم متحررة من الوزن والقافية، كما جاء في خطبة خطبها الإمـام بعد مقتل طلحـة والـزبير في معركـة الجمل، وأسمح لنفسي التصرف بكتـابتهـا على الشكل التالي:

بِنَـا اهْتَـديتُم في الظَّلماءِ، وتَسَنَّمْتُم ذُرْوَة العَلياء،

وبِنا أَفْجَرتُم عن السِّرار.

وقِرَ سَمْعٌ لم يَفْقَه الواعيةَ،

وكيف يُـراعي النَّبْـاةَ من أصَمَّتْـهُ الصَّيحةُ؟!.

رُبِطَ جَنَانٌ لم يُفارقه الخَفقانُ.

مـا زلتُ أنتظـرُ بِكُـم عـواقبَ الغَـدْر، وأتَـوسَّمُكُم بِحِلْيـة المُغْتَرِّين، حتى سَتَرني عَنكُم جِلْبـابُ الـدِّين، وَبَصَّرَنيكُم صـدقُ النيَّة.

أقَمْتُ لكـم على سَنَنِ الحَقّ في جَـوَادِّ المَضَلَّة، حَيْثُ تَلْتَقُـون ولا دَليلَ، وَتَحْتَفِرُون

ولا تُميهُون.

اليومَ أُنْطِقُ لكُم العجماءَ ذاتَ البيانِ!

عَزَبَ رأيُ امرىءٍ تَخَلَّفَ عَنّي!

ما شَكَكْتُ في الحقِّ مُذْ أُرِيتُه!

لم يُوجِس موسى عليه السلامُ خِيفةً على نَفْسه، بل أشْفَقَ من غَلَبَةِ الجُهّال وَدُوَلِ الضَّلال».

اليومَ تَواقَفْنا على سبيل الحقِّ والباطل.

من وَثِقَ بماءٍ لم يَظمأ(٧).

فهذه الخطبة مقسمة إلى مقاطع عدة، كل مقطع فيها يدور حول فكرة مركزة، وكل فكرة تشع في ثناياها صورتان أو ثلاث، وكل صورة تصاغ وفق عبارة مضغوطة منتقاة، وكل عبارة مشحونة برموز واستدلالات وتضمينات مكثفة. وهذه جميعاً تشكل قسماً يبدو وكأنه مقطع مستقل، لكنه في المحصلة النهائية للنص يصبح جزءاً من كل، وعضواً في جسم مترابط ترابطاً وثيقاً. وهذه الخطبة شحنها الإمام بطاقات تجاربه الحياتية، فجاءت معبرة عن موقف الخطيب الفلسفي من اكون والمجتمع والإنسان، وذلك بلغة امتزجت فيها الذات والموضوع، والمرارة أو الشكوى بشموخ الإيمان بنحو مدهش مثير. وهذه الأمور جميعاً لم تتيسّر غير خطابة الإمام، فجاءت وكأنها فوق الزمان والمكان.

ثانياً: البيان الخلافي

يبدأ عصر الإمام الأدبي منذ وفاة الرسول الكريم في السنة العاشرة وينتهي باستشهاده في الأربعين للهجرة. وخلال السنوات الثلاثين تلك كان الإمام حاضراً في الحياة الإسلامية بمناحيها المختلفة، لكن خطابته لم تأخذ طريقها نحو التنوع والتعدد إلا في فترة خلافته لما استتبع ذلك من حروب ومشاحنات ومروق ونكث وخروج عن الدين. وانطلاقاً من المنهج المقرر لهذه الدراسة لا بد من التوقف ملياً أمام أول خطبة يظن أنه استهل بها خلافته، وهي ما أسميتها مشروع الحكم أو البيان الخلافي، حيث يقول:

«إنَّ اللهَ سبحانَه أنزَلَ كِتاباً هَادِياً بَيَّنَ فيه الخَيْرَ والشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ الخَيْرِ تَهْتَدوا، واصدِفُوا عن سَمْتِ الشرِّ تَقْصِدوا.

الفرائضَ الفَرائض! أدُّوها إلى اللهِ تُؤَدِّيكُم إلى الجنَّة. إنَّ الله حرَّم حراماً غيرَ مَجْهولٍ وأحَلَّ حلالاً غيرَ مَدْخُولٍ، وفضَّل حُرْمةَ المُسلمِ على الحُرَم كُلِّها، وشدَّ بالإخلاص والتَّوحيد حُقوقَ المسلمين في معاقدها: «فالمُسلمُ من سَلِمَ المُسلمونَ من لسانه ويدِه» إلاَّ بالحق، ولا يَحِلُّ أذى المُسلم إلاَّ بما يَجِب.

بادروا أمرَ العامَّة وخاصَّة أحدكُم وهو

الموتُ، فإنَّ النَّاس أمامكم، وإنَّ السَّاعة تَحْدُوكم من خَلْفَكم. تَخَفَّفوا تَلْحَقوا، فإنَّما يُنْتَظَرُ بأوَّلِكُم آخِرُكُم.

اتَّقوا الله في عِباده وبلاده، فإنَّكُم مَسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. أطيعُوا الله ولا تَعْصُوه، وإذا رأيتُم الخيرَ فَخُذُوا به، وإذا رأيتم الشرَّ فأعرضوا عنه»(٩).

إنسجاماً مع السنة التي دَرَج عليها الرسولُ وخلفاؤه من بعده، وقف الإمام بُعَيْد مبايعته ليذيعَ على النَّاس بيانه الخلافي ويُبيِّن لهم مشروعه للحكم. فشكَّل القرآن الكريم المنطلق والأساس، فمن اتبعه اهتدى إلى سبل الخير والصلاح وتجنَّب الشر انطلاقاً من آيات كثيرة منها: ﴿ذَلك الكتاب لا ريبَ فيه هدىً للمتَّقين﴾(١٠)، موحياً بأنَّ من نَهَج نَهْج القرآن اهتدى إلى الخير، ومن صدق عنه أهلك نفسه فأودى به عمله إلى النار. ويمضي الإمام معدداً الأولويات والعقائد الإسلامية، فبعد الاعتقاد بالله والإيمان بتعاليم القرآن، تأتي الفرائض التي تؤدي حتماً إلى الجنة. وكعادته فهو يستخلص المعنى من المعنى مبيناً التفاصيل الدقيقة التي تطاول حياة المسلمين، معرفاً المسلم الحقيقي، فهو الذي سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده انسجاماً مع الحديث الشريف، إلا إذا اقترف المسلم كبيرة يحاسب عليه قانون الإسلام. ثم يوصي الإمام المسلمين بالناس وخصوصاً العامة منهم مذكراً بحقيقة الموت المحتم عليهم جميعاً، مؤكداً على تقوى الله في عباده. ولا يكتفي بذلك بل يؤكد على تقوى الله بالحجر والحيوان، مركزاً على طاعة الله في ما أمر والإعراض عن الشر.

وغني عن البيان القول أن الخطيب أخذ معجميته من معجمية القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً، فما من لفظة أو صورة إلا وهي مستقاة من القرآن أو الحديث الشريف، بما في ذلك أسلوب الترغيب والترهيب والثورة على تقاليد الجاهلية وعاداتها التي كانت ما تزال حية في نفوس بعض المسلمين وفي وعيهم ولا وعيهم.

ثالثاً: الخطابة الدينية

من البديهي القول أن الخطابة الدينية شكلت المنطلق والأساس لخطب الإمام كافة، فالدارس لنهج البلاغة يجدها مبثوثة في غير مقطع من خطابته المتعددة الاتجاهات، فضلاً عما أفرده لها من خطب غلب عليها الطابع الديني حتى عُرفت به. وإذ كنت لا أستطيع حصرها أو الوقوف عندها جميعاً، فإنني سأتوقف عند إحداها حيث يقول:

«أوَّلُ الـدِّين معـرفَتُـه، وكَمال معـرفَتِـه التَّصديقُ بِـه، وكمالُ التَّصديقِ به تَـوحيدُهُ، وكَمالُ تـوحيـده الإخـلاصُ لـه، وكمالُ الإخـلاصِ له نَفْي الصِّفـات عَنْه. لشهـادة كُلّ صفـة أنَّها غيرُ الموصُـوف، وشهـادة كُلِّ موصـوفٍ أنَّه غيرُ الصِّفـة. فمن وصف الله سُبحانَهُ قـد قَرَنَهُ، ومن قَرَنَـهُ فقد ثَنَّاهُ، ومَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأهُ، ومن جـزَّاه فقد جَهِلَه، وَمن جَهلَهُ فقـد أشار إليـه، ومن أشار إليـه فقد حَدَّه، ومن حدَّه فقد عدَّهُ، ومن عدَّه قال: فيمَ؟. ومَن قال علام؟ فقد أخلى منه»(١١).

يستـدعي شرح هـذا المقطع من خطبـة الإمام عليّ الطويلة التطرق إلى أفكار فلسفية شغلت علماء الكلام دهـراً. وكأني بالخطيب ــ الفيلسـوف يريـد أن يقـول: «أول الـدِّين معـرفته». أي أوّل واجب مقصـود بذاتـه في الـديـن معـرفـة الـدين. «وكمال معـرفتـه التصديـق به» ومعـرفة الله قـد تكون نـاقصة وهي أن يعرف المرء أن للعـالم صانعاً مـؤثراً. ومعـرفته غير نـاقصـة وهي أن يعلم المرء أن ذلك المؤثـر خارج عـن سلسلة الممكنـات، والخارج عن كل الممكنـات ليس بممكن، وما ليس بممكن فهو واجـب الوجود. فمن علم أن للعـالم مؤثـراً واجب الـوجود، فقـد عرف الله عـرفانـاً أكمل ممَّن عـرف أن للعالم مؤثراً فقط، وهذا الأمر الزائد هو المكنّى عنه بالتصـديق به، لأن أخـص ما يمتـاز به الله عن مخلوقاته هو وجوب الوجود.

وأما قوله «وكمال التصديق به توحيده». فكل من علم أن الله واجب الـوجـود فهـو مصدق بـه، لكن ذلك التصديق قـد يكون ناقصاً، وقد يكـون غير ناقص. فالتصديق النـاقـص يقتصر على أن يعلم المرء أن الله واجب الوجـود فقط. والتصديق الـذي هو أكمل وأتم هـو العلم بتـوحيـد الله. لأن واجب الـوجود لا يمكن أن يكـون لذاتين، مما يفضي إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجبي الوجـود. فمن علم أن الله واحد أي لا واجب الـوجـود إلا هـو يكـون أكمل تصـديقـاً ممن علم أن صـانع العـالم واجب الوجود فقط.

وأمـا قولـه: «وكمال تـوحيده الاخـلاص لـه». فيعني نفي الجسميـة والعـرضيـة ولـوازمهما عن الله. لأن الجسم مـركب وكل مـركـب ممكن، وواجب الـوجـود ليس بممكن. وكـل عـرض مفتقـر، وواجب الوجـود غير مفتقر، فـواجب الوجـود ليس بعرض. وكـذلك فكل جرم محدث وواجب الـوجود ليس بمحـدث، فـواجب الوجـود ليس بجـرم. وأيضاً فكل حاصـل في الجهة إمـا جرم أو عـرض، وواجب الوجـود ليس بجـرم ولا عرض، فـلا يكـون حاصـلاً من

جهة. فمن عرف وحدانية الله ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانية الله فهو المخلص في عرفانه ومعرفته له تكون أتم وأكمل.

وأما قول الإمام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه» فهو تصريح بالتوحيد ونفي الصفات ـ المعاني القديمة. وهذا التصريح ألزم الخطيب القول: «لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة». والمعنى المراد: لو كان ـ المراد به الله سبحانه وتعالى» ـ قديماً، لكان واجب الوجود إما هو القديم، أو غيره، أو ليس هو ولا غيره. والافتراض الأول باطل لأننا نعقل ذاته قبل أن نتصور له علماً. والافتراض الثالث باطل أيضاً لأن إثبات شيئين أحدهما هو الآخر ولا غيره، فاسدٌ ببراهة العقل. ويبقى الافتراض الثاني وهو محال، لأن واجب الوجود لا يجوز أن يكون لشيئين. فالإخلاص لله تعالى قد يكون ناقصاً، وقد لا يكون. والإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده، وأنه واحد ليس بجسم ولا عرض، ولا يصح عليه ما يصح على الأجسام والأعراض. والإخلاص التام هو العلم بأنه لا تقوم به المعاني القديمة ـ الصفات، وحينئذ تتم المعرفة وتكمل.

ثم يؤكد ابن أبي طالب «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه» لأن الموصوف يقارن الصفة، والصفة تقارنه. «ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه» وهذا حق لأن من قرنه أثبت قديمين، ومن أطلق لفظة الله على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمى هذا اللفظ وفائدته متجزئة. «ومن جزّأه فقد جهله». وهذا صحيح، لأن الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به. «ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه» وهذا صحيح أيضاً، لأن كل مشار إليه فهو محدود، ولا بد أن يكون في جهة مخصوصة، وكل ما هو في جهة فله حد وحدود، أي له أقطار وأطراف، وجعله من الأشياء المحدثة، لأن كل محدود معدود في الذات المحدثة.

وأما قول الإمام: «من قال: فيم؟ فقد ضمّنه، ومن قال علام؟ فقد أخلى منه فهو حق كذلك، لأن من تصور أن الله في شيء فقد جعله إما جسماً مستتراً في مكان، أو عرضاً سارياً في محل، والمكان متضمن للمتمكن، والمحل متضمن للعرض. وإن من تصور أن الله على العرش أو على الكرسي فقد أخلى منه غير ذلك الموضع[١٢].

وفي النظر إلى هذا المقطع من زاوية إطار القصيدة العام، نجد أن الإمام استهل خطبته بحمد الله وتعظيمه، منوهاً بفضائل

الله وخلقه، مؤكداً أن الإنسان مهما اجتهد فلا يمكن له أن يحصي نعمَه أو يحده بحد أو يدركه بإدراك، فهو الذي فطر الخلائق وخلق الكون برياحه أو حركيته وصخوره أو جماده. إذ لا تحيط به النعوت ولا الألفاظ ولا الصفات فهو فوق ما يعد ويحصى ويبدأ وينتهي.

ويشير الخطيب إلى محدودية عقل الإنسان عن اكتناه نواميس الطبيعة جميعاً فضلاً عن الإحاطة بقدرة الله وقوته وأسراره، فمعرفة الله غير خاضعة للجدل والمحاكمة العقلية، والتفكير بأمره تشبيهاً له بواقع البشر، وتحديد ماهيته وفقاً للمنطق الإنساني لغوٌ وعبثٌ لا جدوى فيه، بل يجب تأمل الخالق تأملاً روحياً مستنداً إلى الإيمان المطلق والتسليم بمقدرته التي لا تحد.

وتدور الخطبة جميعها وخصوصاً المقطع الذي اخترته حول التوحيد، فالإمام يرى أن أولى الفرائض الإيمانية أن يعرف المؤمن الله وأن يصدِّق به، ومعرفة الله ليست المعرفة الشائعة التي تنمي الرغبة والرهبة، بل هي معرفة حقيقته وقدرته والتصديق بهما، وبأنه خلق العالم وحده دون شريك شاركه في خلقه وملكه. والإمام يشدد على الوحدانية والإخلاص في التصديق بها متأثراً بواقع الدين الإسلامي الذي يرى في التوحيد الركن الأساسي في الإسلام. فالوحدانية هي باعث النظام المتوحد المتكامل في الوجود ورمز للحكمة العاقلة التي تسير الكون، فإذا آمن بها المؤمن فكأنه أقر عبرها بالعناية الإلهية وحكمة الخالق التي لا ينازعه فيها منازع، فيفسد عليه نظامه وإرادته ويحول بينه وبين العناية بعباده، لذلك تشدد الإمام بها، إذ لا إيمان دون توحيد، ولا توحيد دون إقرار بحكمة الخالق ووحدة إرادتيه. فنفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى سبيل آخر من سبل التوحيد لأن من أضاف صفات وفضائل إلى الله نفى عنه الكمال وأشرك في وحدانيته[١٣].

وغني عن البيان أن الإمام عليّ استقى عمقه الإيماني من تفهمه الواعي والحقيقي لتعاليم الإسلام، ومن ملازمته للرسول ملازمة الظل، لأنه عاش في كنفه ولم يعبد صنماً أو وثناً، وجاهد في سبيل الله حق جهاده وفهمه حق الفهم وأدرك كنهه حق الادراك.

ثم لا بد من القول أن الخطيب استمد معجميَّة ألفاظه من معجمية القرآن بتمامها وكمالها، وأخذ أفكاره من عمق تفهمه للإسلام، وبذلك تفوق على معاصيه جميعاً. كما أن معانيه تعتبر ثورة ناضجة ذات أبعاد فكرية لم يجاره فيها أحد، وبذلك

وضع اللبنة الأساس للحركة الفكرية التي شغلت المفكرين في العصور اللاحقة.

رابعاً: الخطابة العسكرية

لم تعرف خطابة ذلك العصر التخصيص الدقيق إلا في ما ندر، فالخطابة العسكرية مثلاً كانت متداخلة مع الأنواع الخطابية كافة، وكذلك الحال بالنسبة للخطابة السياسية والدينية وسواهما. وذلك إنما يعود إلى طبيعة المرحلة ومستلزمات الواقع الإسلامي. فالإسلام إنما هو دين وسياسة، والدين والسياسة يستلزمان جهاداً عسكرياً، والجهاد العسكري لا يتحقق إلا إذا عضدته المعتقدات الدينية والأفكار السياسية. فهذه الأنواع جميعاً تتعاضد لتكون كلاً متكاملاً لا يمكن انفصام أجزائه وحلقاته.

وخطابة الإمام بأكثريتها لم تخرج عن هذا الإطار، وخصوصاً أنه كان رجل سياسة عرف طبائع الناس معرفة واسعة، كما أنه عرف الإسلام ما خفي من مبادئه وما بطن، فهو «باب مدينة العلم» و«هداية المهتدين والمنبىء عن حقائق التوحيد»[١٤]. فضلاً عن كونه رجلاً عسكرياً من طراز رفيع، خبر الحرب ومارسها قولاً وفعلاً، فهو «داجي باب خيبر»، وسيفه «ذو الفقار» ذائع الصيت، فلا غرو إذاً أن يترك الإمام خطباً عسكرية عديدة يحث فيها على الجهاد في سبيل الله ونصرة دين الإسلام، وقف بين الناس عندما علم أن جيشاً لمعاوية غزا الأنبار وقتل عامله هناك، وقال:

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، وديِّث بالصَّغَار والقماءة، وضرب على قلبه بالأسداد (بالإسهاب) وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزيَ قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان.

فهذا أخو غامد، وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقُلُبَها، وقلائدها ورعثها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والإسترحام. ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلْم، ولا أريق لهم دم، فلو أن أمْرِءاً مسلماً مات من بعد

هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً فيا عجباً! عجباً ـ والله ـ يميت القلب، ويجلب الهمم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم!. فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غَرَضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تُغيرون وتُغزون ولا تَغزون ويُعصى الله وتَرضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم أيام الحر قلتم: هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يسبَّخُ عنا الحر وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارَّة القُرِّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد» كل هذا فراراً من الحر والقرِّ، فإذا كنتم في الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفرُّ.

يا أشباه الرجال ولا رجال» حلومُ الأطفال، وعقول ربَّات الحِجال، لَو ودِدْتُ أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة ـ والله ـ جرَّت ندَماً وأعقبت سدماً. قاتَلَكم الله» لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً، وجرَّعتموني نُغَبَ التَّهمام أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجلٌ شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني» لقد نَهَضْتُ فيها وما بَلَغْتُ العشرين، وهأنذا قد ذرَّفْتُ على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاعُ!(١٥).

وفي التوقف مع مناسبة خطبة الجهاد نجد: «أن معاوية بن أبي سفيان، دعا سفيان بن عوف الغامدي (ـ ٥٢هـ/ ٦٧٢م)، وقال له: «إني باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة. فالزم جانب الفرات، فاقتل من لقيته ممَّن ليس هو على مثل رأيك، واخرب كل ما مررت به من القرى، واحرَب الأموال، فإن حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب». وفي سير المعركة يَرْوي ابن عوف الغامدي: «ثم أخذت أبعثهم إليه (حسان البكري: عامل علي بن أبي طالب على الأنبار) كتيبة بعد كتيبة، فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فلما حَمَلت عليهم الخيل وأمامهم الرجال تمشي، لم يكن شيء حتى تفرَّقوا وقُتل صاحبهم في نحو ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال، وثم انصرفت. فوالله ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون ولا أسرَّ للنفوس منها».

وعندما علم الإمام بالأمر صعد المنبر فخطب بالناس فقال: «إن أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار، وهو معتز لا يخاف، واختار ما عند الله على الدنيا، فانتدِبُوا إليه حتى تلاقوهم فإن أصبتم طرفاً أنكلتموهم

عن العراق أبداً ما بقوا». ثم سكت رجاء أن يجيبوه، أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينبس أحد منهم بكلمة. فلما رأى صمتهم نزل وخرج يمشي راجلاً والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: «إرجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تكفونني ولا تكفون أنفسكم».

ولبث الإمام تُرى فيه الكآبة والحزن، وكان تلك الأيام عليلاً فلم يقوَ على القيام في الناس بما يريده من القول. فجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد ومعه إبناه الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر، فدعا سعداً مولاه، ودفع إليه الكتاب وأمره أن يقرأه على الناس، فقام سعد بحيث يسمع عليّ صوته، ويسمع ما يرد الناس عليه، وقرأ نص الخطبة التي نحن بصدد دراستها.

وأما معاني الخطبة فيستهلها الإمام بوصف الجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة، ثم يستطرد ليؤنب المسلمين على تخاذلهم عن القتال حتى أصبح جند معاوية يلمون بأساليبه ويقتلونهم ويولون الأدبار دون أن يصابوا بأي أذى. ويشتد غضب الخطيب فيصور الذل الذي يتردى فيه أتباعه، والأعذار التي يتبررون به. أما في النهاية فيصف الحسرة والأسى اللذين ما برح يعانيهما من جراء عصيانهم.

تلك هي المعاني المهمة التي تمثلت في الخطبة، وهي تبدو في مجملها شائعة مألوفة، ولكننا إذ نتدبرها وهي في حلتها البلاغية، نشعر أننا أمام أثر فني متكامل، ولعل عناية الإمام بالأداء الفني لم تصرفه عن العناية بالواقع النفسي، كما أن غضبه ونقمته لم يعمياه عن التوسل بما يثير عواطفهم المكنونة، ويصور لهم تخاذلهم وجبنهم، لهذا انصرف في مستهل الخطبة عن إظهار غايته، حتى أننا لا نستشف نقمته العارمة التي تجيش في صدره، وكأن آراء واعظ يتحدث إلى مستمعيه بأمور دينهم، أكثر مما هي أفكار قائد تثور في نفسه النقمة على أتباعه بعد أن تخاذلوا وجروا العار عليه وعليهم. فهو يبتدىء بوصف الجهاد وإظهار قيمته بالنسبة إلى الدين: إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذل وأشمله البلاء، وألزمه الصِّغار وسامه الخسف ومنعه النصف. ولا يخفى ما في هذا القول من أساليب الترغيب والترهيب يلامسهما ملامسة خفيفة دون اشتداد وتقريع أول الأمر، ثم يلجأ إلى التقريع المبطن فيقول: «ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً دون أن تظهر ثورته ونقمته بوضوح ظاهر، بل بقيت مبثوثة بثاً غامضاً في الألفاظ والصور والمعاني.

ولئن كانت الأفكار التي طرأت منذ مطلع الخطبة تعبر عن آراء الخطيب، فإنه لا يعتم أن يتوسل بالأدلة لاثباتها، متمثلاً بقصة حسان البكري عامله على الأنبار الذي قتله سفيان بن عوف، وهذه الأدلة ضرورية للتأثير في الخطابة، لأنها تضع السامع أمام واقع شاهده وتلمَّسه بحواسه فأسهم في إقناعه عن طريق العقل والمنطق. وهكذا فإن الأدلة التي تمثل دخول المنطق واللحمة في الخطبة تظهر في خطب الإمام علي جميعاً التي أصبحت أقرب إلى الحياة الواقعية، وأشد ارتباطاً ببعضها البعض من الخطب الجاهلية المتشبهة أحياناً بسجع الكهَّان.

وكما توسل الإمام بالأدلة الشائعة في الخطابة، فإنه يتوسل أيضاً بما يدَّعونه المقابلة، فهو إذا أراد أن يمثل الخزي الذي تردى به أتباعه صوَّر لهم فتك جند معاوية بهم وتنكيلهم بالصالحين منهم، ثم فرارهم: «وافرين ما كَلِمَ رجلٌ منهم». أن تصور القوم الذين قتلوا منهم يثيرهم دون شك، إلا أن تلك الثورة تتضاعف وتشتد عندما يشاهدون أن العدو وقد رجع من ديارهم لم يصب بأي أذى أو انتقام. وهكذا فإن الحالة النفسية التي عبَّر عنها تولَّدت من المقابلة بين حالتين: حالة قوم أذلاء نفذ العدو إلى ديارهم ومثَّل بهم، وحالة قوم أشداء بواسل ينفذون إلى معسكر العدو فينكِّلون به دون أن يقوى أحد على مقاومتهم أو التصدي لهم.

ثم نجد أن الإمام تعدى الدهشة إلى الاستياء الواضح الصريح وإظهار النقمة مباشرة، مستهلاً ذلك بقوله: «فيا عجباً! عجباً» وهذا يدل على أن الخطبة كانت تجري في أسلوب تصاعدي تطوري يتدرج فيه الخطيب تدرجاً منطقياً ونفسياً حتى أن الفكرة اللاحقة تبزُّ الفكرة السابقة وتتسامى عليها. ويظهر ذلك في حدود اللفظ وفي حدود المعاني كذلك. إذ أن لفظة التعجب سبقت لفظة التقبيح واللعنة، في حين أن أسلوب المقابلة الذي يُظهر المعنى ويؤكده يتطور ويتسامى أيضاً، هو يحدثهم عن جد أعدائهم في باطلهم وقعودهم وتخاذلهم عن حقهم، مكرراً معنى الانكسار والانتصار، ولكنه هنا يقويه ويضاعفه، لأنه يظهر لهم أن انتصار أعدائه يرمز إلى انتصار الباطل، وانكسار أتباعه يرمز إلى انكسار الحق. وذلك يؤدي إلى تمثل الخزي الذي لحق بهم، ويضاعف شعورهم بالمنكر، ويحثهم على الاشتداد في المعارك محواً للعار، واستعادة للحق المسلوب، ودحراً للباطل، وإحلالاً للخير والصلاح.

ولقد كان من الطبيعي أن تؤدي أساليب

التدرج التصاعدي إلى إظهار النقمة بشكل مباشر واضح ساخر، فيخاطبهم بقوله: «يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال». ولا يخفى ما في هذا الكلام من نقمة وصلت إلى حد اللعنة، لكنها لعنة متعففة أبقتهم في إطارهم الإنساني العام ولم تنزلهم إلى درك الحيوان والبهم رغم قَرَفِه الممزوج باليأس والمرارة والإحباط، فيقول: «لوددت أني لم أركم، ولم أعرفكم، معرفة والله جَرَّت ندماً وأعقبت سدماً»(١٦).

ولعل من الصواب القول إن خطابة الإمام لم تكن لتصدر عنه بمثل هذا العمق والوعي والفهم، لو لم يكن متعمقاً بدراسة نفسية البشر، ملماً بفنون الحرب والقتال، متمثلاً للقرآن الكريم عارفاً بأحكامه، مدركاً لتعاليمه، مالكاً لأساليبه، مستمداً أفكاره من القرآن ومتأثراً بمعجميته ومنهجه متبعاً لسنة الحديث مستشفاً بلاغة سابقيه وهذا ما سأحاول الإشارة إليه الآن.

فهذه الخطبة شأن خطب الإمام جميعاً متمثلة للإسلام وممثلة معجميته، فعبارة «لباس التقوى» لعلها مستمدة من الآية الكريمة: ﴿قد أنزلنا عليكُم لِباساً يُواري سَوْآتِكُم وريشاً ولباسُ التقوى﴾(١٧). وكلمة جُنَّته الواردة في استعماله «جُنَّته الوثيقة» مستقاة من الآية الكريمة: ﴿اتَّخَذُوا أيمانَهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ إنَّهم ساءَ ما كانوا يَعْملون﴾(١٨). والأسداد التي وردت في بعض النسخ مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلنا من بَين أيدِيهم سَدّاً ومِن خَلْفهم سَدّاً فأغشيناهُم فهم لا يُبْصِرون﴾(١٩).

وأما تعبير «أُديلَ الحق منه بتضييع الجهاد» فلفظة أُديلَ مأخوذة من معنى القرآن الكريم: ﴿وتِلكَ الأيامُ نُداولها بين النَّاس﴾(٢٠). والباء في لفظه تضييع هي للسببية، والمراد ذهب الحق منه لأجل تضييع الجهاد. وهي كقوله تعالى: ﴿ذَلك جَزَيْناهم ببَغْيهم﴾(٣١). أي لأجل بغيهم أو بسبب بغيهم، وليست الباء كالباءات المتقدمة «بالصغار» و«بالأسداد» أو «الإسهاب» المراد فيها أنها جعلته ذليلاً مهاناً. والذل والمهانة تقف سداً بين المرء وبين البصيرة والعقل الراعي والرشاد إلى ما فيه خير الإنسان في الدنيا والآخرة. وأما تعبير «الاسترجاع والاسترحام» فهو مستمد من قوله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾(٢٢).

وأما معنى الجهاد المهيمن على جو الخطبة تصريحاً وتلميحاً، والذي مسح الأسلوب بمسحة «الهدوء ـ الانفعالي» إذا جاز التعبير، فهو مستمد من أكثر أربعين آية

تناولت معنى الجهاد أذكر منها: ﴿وجاهدوا في الله حق جهـــاده﴾[٢٣]، ﴿فَضَّـــلَ اللهُ المجاهدين بأموالِهم وأنفسِهم على القاعدين أجراً عظيماً﴾[٢٤]، وقوله تعالى: ﴿انفروا خِفافاً وثِقَالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيـل الله ذَلِكُـم خَيْرٌ لكـم إنْ كنتـم تَعْلمون﴾[٢٥].

وأمـا تأثر أسلـوب الإمام بـالحديث الشريف، فـواضح أيضـاً في ألفاظ الخطبـة وتعـابيرهـا. فلفظة «قُلُبُهـا» هي كـاللفظـة المأخوذة من حـديث عائشة إن الـرسول رأى في يدها قُلُبين. والمقصود بهما الزينة، ولفظة الزينة وردت في القرآن الكريم: ﴿ولا يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَّ إلاَّ ما ظهَـر منها﴾[٢٦]. وفي قولـه: «فقبحاً لكم وتَرحـاً» أي صيَّره قبيحاً مأخوذ من الحديث الشريف «لا تُقَبِّحُـوا الوجـه». ومعنـاه لا تقـولوا أنـه قبيح لأن الله خلقـه. ولكن الإمـام لم يستعملـه بـالمعنى الجمالي بل بـالمعنى النفسي والخلقي. ولفظـة «حَمَارَّةُ» فهي متصلة بلفظـة حمراء كما ورد في الحديث الشريف على لسـان العـرب «كنـا في حَمْرَاء القَيْظ على مـاءٍ شَفِيّه»[٢٧]. ولفظة «يُسَبِّخ» مستمدة من حـديث الرسول لعائشـة عندما سرق سـارق شيئاً من منـزلها فدعت عليـه، فقال لها الرسول: «لا تُسَبِّخـي عنه بدعائك عليه»[٢٨]. أي لا تُخففي عنه إثمه.

وأما تـأثره بـالشعر والأدب وكـلام العرب وتأثيره باللاحقين فهـو لا يحتاج إلى كثير من الجهـــد والنَّب. فتعبير «وسيـم الخَسْفُ» مستمد من تعبير العرب: «سامه خَسْفاً» إذ أولاده ذُلاً. هكـذا ورد في تـــاج العـــروس وغيره. وكلمـة «رُعُثُهـا» المقصود بـه القـرط فمثلـــه قـــول النمـــر بن تـــولب (ـ ١٤هـ/ ٦٣٥): (المتقارب):

وكُلُّ خَليلٍ عليه الرِّعاثُ
والحبلاتُ كَذُوبٌ مَلِق[٢٩]

ومثله أيضاً قـول الأخطل في ذي الرعثات وهو الدّيك: (البسيط)

ماذا يُؤرِّقُني والنَّومُ يُعجبُني
من صوت ذي رَعَثات ساكن الدار[٣٠]

وكلمة «قبحـاً» أي صيره قبيحاً مثلـه قول الحطيئة يصف وجهه: (الطويل)

أرى لك وجهاً قبَّح الله شخصه
فقبح من وجه وقبح صاحبه[٣١]

ولفظـة «يُسْبِّخ» مثلهـا قـول الشـاعـر: (الطويل)

فَسَبِّخْ عليك الهمَّ واعلم بأنه
إذا قَدَّر الرَّحمن شيئاً فكائنْ[٣٢]

وكلمـة «صبـارَّة» ومنـه أم صبـار كقـول النـابغة الـذبيـاني (ـ ١٨ق/ هـ/ ٦٠٤م): (البسيط)

تُدافِع الناسَ عنها حين يَرْكبها

من المظالم يُدعى أم صبار[٣٣]

وكلمة «نَغَب»، فمثلها قول ذي الرّمة (٧٧ـ١١٧هـ/ ٦٩٦ـ٧٣٥م): (البسيط)

حتى إذا زَجَلت عن كل حَنْجَرةٍ
إلى الغليل ولم يَقْصَعْنَه نَغَبُ[٣٤]

وهكذا نجد أن الإمام يَستحثّ أتباعه وأنصاره على الجهاد، فيستميلهم مُرغباً بأن الجهاد باب يلجه خاصة الأولياء إلى الجنة، ومرهباً بالذل والبلاء والصّغار والقماءة، غايته دائماً التأثير بأنهم على حق وأعداءهم على باطل، وهدفه الأساس الاقناع بأحقية جهادهم في سبيل الله، مستخدماً الوسائل النفسية والفكرية والمنطقية، منتقلاً من العام إلى الخاص، ومن الحكم الاجمالي إلى التفاصيل التمثيلية الدقيقة، مستخدماً معجمية القرآن الكريم ومتمثلاً تعاليم الإسلام ومبادئه وأفكاره، ومتأثراً بالحديث الشريف ألفاظاً ومعاني وصوراً، ومستمداً بعض ألفاظه من الشعر العربي الأصيل، ومؤثراً باللاحقين.

خامساً: الخطابة السياسية

تمثل الخطابة السياسية وجه العصر الإسلامي وروحه، فهي تطاول الأنواع الخطابية وخصوصاً الدينية منها، إذ لا تعارض مطلقاً بين الدين والسياسة. فالإسلام في المبدأ دين ودولة، أو دولة دين تسوس الناس بالشرع، وتحكم بينهم بالقرآن والسنة. وتمثل روحه لأنها أحاطت فعلاً بمشكلات المجتمع الإسلامي المغلّفة دائماً بإطار ديني. فبُعَيد وفاة الرسول برزت بوضوح حركية التاريخ السياسي المتمثلة باختيار خليفة للمسلمين.

لكن تلك الحركية، لم تكن وليدة الظرف الخلافي، بل تمتد جذورها إلى ما أبعد من ذلك بكثير، فالصراع على سلطة القرار السياسي كان موجوداً في الجاهلية ومتمحوراً بين الهاشميين والأمويين، مما أدى إلى ما اصلح على تسميته في ما بعد بالأحزاب السياسية. ومن هذا المنطلق تفهم معارضة القريشيين وتحديداً الأمويين للرسول الكريم، ولو لم يكن الرسول هاشمياً لما عارضه الأمويون، ولو لم يهدد سلطتهم السياسية لما وقفوا في وجهه كما أظن. إذ أن زعماء ما يمكن تسميته بالحزب الأموي كأبي سفيان وأبي لهب وغيرهما، كان صراعهم مع الرسول صراعاً سياسياً لابساً لبوس الدين. واستطراداً فإن المعركة بين المسلمين والمشركين كانت في عمقها معركة سياسية على الأقل من الجانب الأموي. ولقد أدى انتصار المسلمين دينياً وسياسياً إلى خبوت الصوت الأموي ليعود إلى الارتفاع بعيد وفاة الرسول.

ومن هذا المنطلق يُفهم الصراع بين الإمام عليّ ومناوئه، وخصوصاً في فترة خلافته. فالكل مسلمون يسعون بشكل أو بآخر إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بحديها الأدنى والأقصى كل على طريقته وحسب مفهومه ومنطقه. فالخلاف إنما هو خلاف سياسي أسهمت الأحزاب السياسية في خلقه وتأجيجه. ولقد كان لسيادة الحزب الأموي ولا سيما في عهد عثمان تأثير كبير على حركية الإمام السياسية والدينية والعسكرية، فتآلب الناس عليه، إذ أن الدماء الأموية التي سفكها في معارك الجهاد لم تزل حارة، فضلاً عن أنه أراد إقامة دولة العدل والحق كما فهمها، مما يؤثر على مصلحة الأمويين السياسية والاقتصادية، فوقف الجميع ضده.

فالإمام عاش في مرحلة استثنائية كانت الثورة السياسية في أوج تلهبها فتأتي على كل من يحاول حصرها أو دفعها نحو التعقل، وهذا شأن المرحلة مع الإمام، فالإمام لم يكن فاشلاً سياسياً كما قد يتراءى للبعض، لكن المرحلة كانت تتطلّب رجل دنيا يقدم المصالح الدنيوية ولو على حساب الدين، لا رجل دين يحكم الناس كما أراد الله.

ففشل الإمام السياسي ـ إذا جاز التسليم بذلك ـ لا يعود إلى ضعف سياسي أو خطأ في التقدير، أو عجز فكري، بل لطبيعة المرحلة ولظروف المسلمين النفسية والسياسية والاقتصادية. فالإمام يعرف كيف يسوس الناس ويقودهم لكنه الدين.

وأما الشَّقْشَقية[٣٥] فهي إحدى خطبه السياسية التي ارتدت لبوس الدين، إذ يلخّص فيها مشكلة الخلافة الإسلامية، يقول:

أما والله لقد تقمَّصها ابن أبي قُحافَة، وإنَّه ليعلمم أنَّ محلّي منها محلُّ القطب من الرحا. ينحدر عني السَّيل، ولا يرقى إليَّ الطَّير، فسَدَلْتُ دُونها ثوباً، وطَوَيْتُ عنها كشحاً، وطفِقتُ أرتئي بين أن أصولَ بيدٍ جذّاء، أو أصْبر على طخيةٍ عمياء يهرمُ فيها الكبير، ويشيبُ فيها الصَّغيرُ، ويكدحُ فيها مؤمنٌ حتى يَلقى ربَّه!.

فرأيت أن أصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذىً، وفي الحلق شجاً. أرى تُراثي نهباً، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى إبن الخطَّاب بعده (ثم تمثَّل بقول الأعشى) شتَّانَ ما يومي على كُورَها ويوم حيَّان أخي جابرِ فيا عجباً!! بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته ـ لشدَّ ما تشطَّرا ضَرْعَيها! ـ فصيَّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمُها، ويخشنُ مسُّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها،

فصاحبها كراكب الصَّعبة، إن أشنق لها خَرَمَ، وإن أسلس لها تقحَّم، فمُنى الناس ـ لعمرُ الله ـ بخبطٍ وشماسٍ وتلوُّنٍ واعتراضٍ، فصبرت على طول المدة، وشدَّة المحنة. حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في ستةٍ زعم أني أحدهُم، فيا لله وللشورى! متى اعترض الرَّيبُ فيَّ مع الأول منهم حتى صرتُ أُقرن إلى هذه النظائر! لكني أسففت إذ أسفُّوا، وطرتُ إذ طاروا، فصغا رجلٌ منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هَنٍ وهنٍ إلى أن قام ثالثُ القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الرَّبيع، إلى أن انتكث عليه فتلهُ وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته.

فما راعني إلا والناس إليَّ كعرف الضَّبع ينثالون عليَّ من كلِّ جانبٍ، حتى لقد وُطِىء الحَسنان، وشقَّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم. فلمَّا نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وفسق آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتَّقين»[٣٦]، بلى! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدُّنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها!

أما والذي فلق الحبة، وبرأ النَّسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجَّة بوجود النَّار، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارُّوا على كظَّة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز![٣٧].

وهنا أمسك عن التعليق على هذه الخطبة لأنها تتعرَّض لأمور سياسية وتاريخية، ولا سيما مشكلة الخلافة. ولا يهمني من إيرادها إلا محاولة تأثرها بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي، وتأثيرها بأسلوب الخطابة العربية والإسلامية، وعملي يندرج دائماً في إطار المحاولة، وليكون أنموذجاً أو دلالة لدراسات مستقبلية.

حرص الإمام في خطبه جميعاً ألا تأتي إحداها «بتراء» أو «شوهاء» أو «جذماء»، فجاءت مستهلة بالحمدلة، مزينة بالصلاة على النبي، مُوَشَّحَة بآيات من القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً، ومستشهداً فيها بالشعر العربي.

تأثر الإمام في خطبته «الشقشقية» بأسلوب القرآن الكريم، فقال: «لقد تقمَّصها» والمقصود الخلافة، لم يذكرها الخطيب للعلم بها وتيمناً بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عليها فَانٍ﴾[٣٨]، وكلمة تقمصها المقصود فيها اللباس مأخوذة من الآية

الكريمة: ﴿لِبَاسُ التَّقوىٰ﴾[٣٩]. في حين أن كلمة «يَكْدَح» مقتبسة من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّك كَدْحاً﴾[٤٠]. . «وأدلى به» مستقاة من الآية: ﴿لاَ تَأْكُلُوا أموالَكُم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكام﴾[٤١]. «ويغلظُ كَلْمُها» كقوله تعالى: ﴿ونَجَّيْناهُم من عذاب غَليظ﴾[٤٢]. والمقصود بالغليظ متضاعف، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كَثُف وجَسُم، فأصبحت أجزاؤه وعناصره متضاعفة، فلما كان العذاب متضاعفاً سمّي غليظاً. وكذلك الجرح في استعمال الخطيب أصبح غليظاً إذا تضاعف وتعمّق. وقوله: «نَكَثَتْ طائفةٌ» مستقاة من الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ على نَفْسه﴾[٤٣]. «وفَلَق الحبَّة»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى﴾[٤٤]. «وبرأ النَّسمة» كقوله تعالى: ﴿هو الخالِقُ البَارِىء المُصَوِّر﴾[٤٥]، «وسغب» مستقاة من الآية الكريمة: ﴿أو إطْعَامٌ في يَوْم ذي مَسغبة﴾[٤٦].

وإلى جانب الاقتباس المجتزأ من آيات القرآن الكريم، حوت الخطبة بعضاً منها صريحاً، كاستشهاده بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نَجْعَلُها للَّذين لا يُريدُون علواً في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمُتَّقين﴾[٤٧].

وفي الخطبة جميعاً نهل ابن أبي طالب من أسلوب القرآن البلاغي، فأورد مثلاً «يلقى ربه» بالوقف والسكن تيمناً بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَن خَشِيَ رَبَّه﴾[٤٨]. بالوقف والسكن. ونهج نهجه تقديماً وتأخيراً. فأصل الكلام في خطبته: «ولا يرقى إليَّ الطير، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذَّاء أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً. . .». والتقديم والتأخير أسلوب من أساليب البلاغة القرآنية. قال سبحانه وتعالى: ﴿الذي أنزلَ على عَبْده الكتابَ ولم يجعل له عِوَجاً قَيِّماً﴾[٤٩]. أي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعله عوجاً. إذ لا يجوز في المعنى أن يسدل دونها ثوباً ويطوي عنها كشحاً، ثم يطفق يرتئي بين أن ينابذهم أو يصبر.

وكما استلهم ابن أبي طالب بلاغته من القرآن الكريم، كذلك أخذها عن الرسول الأعظم، فقال: «أشنق لها» في مقابل قوله: «أسلس لها». فالعرب إذا قصدوا الازدواج في الخطابة فعلوا مثل هذا الفعل، فقالوا: «الغدايا والعشايا»، والأصل الغُدوات جمع غداة. قال رسول الله(ص): «ارجعن مأزوراتٍ غير مأجورات» وأصلها موزورات بالواو لأنها من الوزر.

واستقى الخطيب أيضاً بعض ألفاظه وتعابيره من ألفاظ الرسول وتعابيره، فقال: «أما والذي»، ولعل ذلك مستقى من قول الرسول المتكرر: «والذي نفس محمد بيده». وقال «لألقيت حبلها على غاربها»، وهو تعبير استعملته العرب في الجاهلية، إذا أراد أحدهم أن يطلّق امرأته، كما ورد هذا التعبير على لسان الرسول كثيراً في كنايات الطلاق.

أما تأثر ابن أبي طالب بالشعر العربي فواضح بين ثنايا الخطبة، ومن ذلك قوله: «لسبيله» وتقديره مضى على سبيله، وتقدير اللام السابقة على سبيله كقول جابر بن حُنَيْ التغلبي (ـ ٦٠ق ـ هـ/ ٥٦٠م) (الطويل)

تناولَهُ بالرُّمْحِ ثُمَّ أثْنَى له
فَخَرَّ صَريعاً لليدين وللفمِ[٥٠]

والتقدير على اليدين والفم.

وقال الخطيب «مُنِي النَّاس»، فمنه قول أبي الغطمش الحنفي (ـ ١١٦هـ/ ٧٣٤م): (المتقارب)

مُنِيبْتُ بِزَمْردةٍ كالعصا
أَلَصّ وأخبث من كِنْدِشِ[٥١]

وقال: فيا لله ولِلشورى، فمنه استقى ابن جندب قوله: (البسيط)

يا للرجال لِيوم الأربعاء أما
يَنْفَكُ يُحدث لي بعد النهي طربا[٥٢]

وقال الخطيب مع هَنٍ، وقوله مأخوذ من قول الشاعر: (الطويل)

أرى بن نَزَار قد جفاني ومَلّني
على هَنَواتٍ شَرّها مُتَتَابع[٥٣]

واستعمل الخطيب أيضاً كلمة عَفْطة، وقد وردت في قول الشاعر: (الرجز)

يا رُبَّ خَالٍ لكَ فَعْفَاعٍ عَفِطْ[٥٤]

هذه نماذج من تضمين الشعر، أما تصريحه فهو استشهاده ببيت الأعشى: (السريع)

شَتَّان ما يَوْمي على كُورِها
ويَوْمُ حيّان أخي جَابِر[٥٥]

والقصيدة قالها الأعشى في مُنافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل.

فخطابة الإمام عليّ سواء أكانت دينية أم عسكرية أم سياسية، ارتجالية أم معدَّة، فإنها تصدر كافة عن فكر ثاقب وعقل نير ومنطق سديد، مستلهماً فيها معجمية القرآن وألفاظه وصوره وبلاغته وبيانه، ومتمثلاً الإسلام ومبادئه وأفكاره بعمق ووعي وإدراك لم يسبقه فيه أحد من غير الملهمين. لذلك يمكن القول أنه إمام البلغاء، إذ أن البلاغة رافقته في مواقفه جميعاً حتى الارتجالية منها. وهو سريع البديهة إلى حد بعيد، لا تقف في وجهه شدة ولا يعجزه مأزق حرج.

وابن أبي طالب لا يتوسل إلى الاقناع بوسائل صناعية، بل بوسائل طبيعية فنية،

بلاغته هي نتيجة عقل نير بعيد الأغوار، وثقافة دينية استقاها في أثناء صحبته للرسول، ومنطق سديد رافق الفطرة، ولسان ذرب تمرّس على أساليب القرآن، وعاطفة صادقة غذّتها العقيدة الإيمانية والاستقامة الفطرية، وفكر ثاقب غذّاه التأمل ونمّاه النظر الطويل ـ العميق إلى الله وعجائب مخلوقاته، وخيال هو خيال الأديب اللامع الذي يخرّج الأفكار مهما كانت عميقة، في روعة من الرونق والجمال.

وهكذا يغزو الإمام السامع بتقواه واقتناعه، لأنه شديد الاقتناع بما يقول، وبلمحه الشديد للحقيقة في قوتها وتسلسل أجزائها وسمو رفعتها، وبحجته التي تقرّع ولا تقبل رداً، وبشخصيته الحكيمة الآمرة، وانضباطه على انفعاليته وتفاعله مع الموضوع والسامع، وإخلاصه لموضوعه وسامعيه، وبتصويره الذي يجمع إلى الروعة واقعية ودقة، وبمراعاته لمقتضى الحال. إذ يشتد كلامه في مواضع الشدة فيحتدم، ويتقاذف جملاً قصيرة محكمة السبك، حافلة بالتشديد والتأكيد وبلين في مواضع اللين فينساب إنسياباً هادئاً. وكأنه انطلق في أجواء الروح، وتعالى عنّ صخب العالم في اندفاق من العاطفة دائم الاتزان والانضباط، ثم بجرأة تطلعه إلى الموت وعالم القبور، وحقيقة الدنيا، وواقع ما فيها، مما يكسب كلامه سيطرة غريبة قلما عُرفت لغيره من خطباء العرب.

يخاطب الإمام سامعيه فيبعث فيهم التطلّع إلى الحقيقة بقوة، والانقياد لها بلين، ويمكّنها فيهم بعاطفة نفسه، ورهبة الواقع التي تنتشر في أجواء الخطبة، ثم بالحجج التي يدعّمها بالشواهد والاستدارات الوصفية، والإيجاز الصاعق. ذلك الإيجاز الايحائي الحافل بالوضوح والدقة. وبعد كل ذلك بالبيان الساحر الذي جمع صفاء الجاهلية والإسلام، ومتانة التعبير، وموسيقى اللفظة التي تظل طبيعية مهما احتشد في العبارة من سجع وتوازن.

وهكذا امتازت خطابة الإمام عليّ بصراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة الذوق، فقال في إحدى خطبه: «ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السِّباق، والسَّبقة الجنَّة، والغاية النار»[٥٦]، ففي تعبيره تجد لفظاً فخماً، ومعنى عظيم القدر وتمثيلاً صادقاً، وتشبيهاً واقعياً. وتجد إلى جانب ذلك سراً عجيباً، ومعنى لطيفاً يتمثل في قوله: «والسَّبقة الجنة والغاية النار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين، فلم يقل السَّبقة النار، كما قال «السَّبقة الجنة». لأن الاستباق إنما يكون إلى أمر وغرض مطلوب، مرجو في الجنة، في حين

ة٩٩أن الغاية هنا ينتهي إليها من لا يرجو عقائده. ولهذا كانت خطبه ترتكز على قيم العقيدة الإسلامية، فيورد فيها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والشعر العربي أحياناً. في محاولة لاضرام نار الحماسة في صدور جنوده. فيصورهم جند الحق يذودون عن الدين، ورغم ذلك يتخاذلون. وخصومه ولا سيما جند معاوية جند الباطل ومع ذلك يستميتون. أسلوبه في خطابته جميعاً أسلوب تعبيري، متين، موقع الفواصل محكمها، مقتضب العبارة، متدافع الألفاظ والصور والمعاني. وأسلوبه كذلك مشتق من أسلوب القرآن الكريم، مستقى من معانيه ومذاهبه البلاغية، محذو حذوه، مسلوك به منهجه. فهو وإن لم يكن له نظيراً ولا نداً، يصلح أن يقال أنه دون كلام الخالق والملهمين وفوق كلام البشر جميعاً، كما أظن، فليس بعد كلام الإمام كلام أفصح ولا أجزل ولا أعلى، ولا أفخم، ولا أنبل، ولا أستطيع أن أزيد. وهذا أمر لا يعلمه إلا من ثبتت له قدم راسخة في علوم العربية، وشاء الله له ذلك.

الهوامش:

(١) اختصت لفظتي الإمام وأمير المؤمنين بعلي بن أبي طالب دون غيره من الناس، ففي أي كتاب وجدتها وجدتا، فإنها هما اختصتا به حتى لو لم تكونا مقترنتان باسمه. هذا ما قررته بعض لمات كتب العربية منها:

ـ ابن أبي طالب (علي). «شرح نهج البلاغة»، دار إحياء الكتب العربية، بيروت ١٩٦٥م، ص ١٢ ومابعدها.

ـ الخوئي (ميرزا حبيب الله). «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة»، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م، م١، ص ٢٢٤ وما بعدها.

ـ الحسيني (هاشم معروف). «تاريخ الفقه الجعفري: عرض ودراسة»، دار التعارف، بيروت، ١٩٧٨م، ص١١٨.

(٢) العسقلاني (ابن حجر، أحمد). «الإصابة في تمييز الصحابة»، دار الكتاب العربي، بيروت، لا تاريخ، م٢، ص ٥٠٢.

(٣) الأصبهاني (أبو نعيم). «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م، م١، ص ٦٢.

(٤) الأميني (عبد الحسين). «الغدير في الكتاب والسنة والأدب»، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م؛ ج٦، ص ٧٩.

(٥) ابن أبي طالب (علي). «شرح نهج البلاغة»، م١، ص ٥٣.

جاء في كلام الشريف الرضي حول تسمية الكتاب بنهج البلاغة: «رأيت من بعد تسمية الكتاب بـ «نهج البلاغة»، إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طلابها، وفيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد».

وجاء في كلامه حول عملية الجمع: «ورأيت كلامه عليه السلام، يدور على أقطاب ثلاثة: أولها

الخطب والأوامر، وثانيها: الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ. فأجمعت بتوفيق الله سبحانه وتعالى الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب، مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصلاً فيه أوراقاً، ليكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عني عاجلاً، أو يقع إليَّ آجلاً. وإذا جاء شيء من كلامه الخارج في أثناء الحوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها، وقررت القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدها ملاءمة لغرضه. وربما جاء فيما اختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن لكلم غير منتظمة، لأني أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالي والنسق. ومن عجائبه عليه السلام التي انفرد بها، وأمِنَ المشاركة فيها، أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المفكِّر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله، ممن عظم قدره ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترض الشك في أنه كلام من لا حظَّ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قَبَعَ في كسر بيت، أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلا حسه، ولا يرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب، مصلتاً سيفه، فيقط الرقاب، ويجندل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، بدل الأبدال. وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد، وألَّف بين الأشتات. وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع العبرة بها والفكرة فيها».

ابن أبي طالب (علي) (شرح نهج البلاغة. م١، ص ٤٨-٤٩.

ولقد شك الشاكون في نسبة بعض خطب «النهج» ومواعظه إلى الإمام علي. قال الدكتور إحسان عباس: «قد اختلفت الرواة فيما جاء من مثل هذه الآداب والمواعظ اختلافاً شديداً، ونسبوا الكلمة منها إلى جماعة من القرابة والصحابة. وكثيراً ما نسبوا فَقَراً يتداولها الناس تارة إلى رسول الله (ص)، وتارة إلى أهله وأصحابه. حتى أن الرضي أبا الحسن الموسوي كان شديد توخيه ومعرفته بكلام أبيه في نهج البلاغة، وهو الذي حققه من كلام عليّ عليه السلام واختاره، كثيراً ما تحقق أصحاب الحديث أنه كلام النبي وكذلك نجده فعل، نسب شطراً من كلامه إلى أولاده رضي الله عنهم. ولعل أحدهم كان يذكر الكلمة العربية رواية أو تمثيلاً عن آبائه، فيغفل الراوي الإسناد، وقد يقع التوارد في الكلمة، كما يتفق الإيطاء في الشعر».

- ابن حمدون (محمد). «التذكرة الحمدونية»، تحقيق إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣م، م١، ص ٦٣.

ويكفي أن أنقل رداً على ذلك ما قرره ابن أبي الحديد في هذا الشأن يقول: «كثير من أرباب الهوى يقولون: إن كثيراً من نهج البلاغة كلام مُحدَث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن أو غيره، وهؤلاء أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضح، وركبوا بنيات الطريق ضلالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام. وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول: لا يخلو إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً أو بعضه.

والأول باطل بالضرورة، لأنا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدثون - كلهم أو جلهم - والمؤرخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض من ذلك.

والثاني يدل على ما قلناه لأن مَن قد أنِسَ بالكلام والخطابة، وشَدَا طرفاً من علم البيان، صار له ذوق في هذا الباب، لا بد أن يفرِّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولد. وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط، فلا بد أن يفرِّق بين الكلامين، ويميز بين الطريقتين... وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحداً، ونفساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعضه من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية».

ـ ابن أبي طالب (علي). «شرح نهج البلاغة»، م١، ص٨.

وأنقل في هذا المجال أيضاً: «وعندي أنه إذا ثبت كل ما في نهج البلاغة للإمام علي، فهو معجزة أدبية، وإذا أراد النافون أن ينفوه عنه وينسبوه إلى جامع الكتاب. فتكون معجزة الإمام أعظم، إذ يستطيع حبه أن يملي على محبيه، أن يأتوا بمثل هذه الدرر الغوالي. فإثبات نهج البلاغة للإمام ونفيه يثبت عظمة الإمام الخالدة ولا ينفي الدين الذي للإمام على مثقفي العرب كافة».

العزيزي (روكس بن زائد). «الإمام علي أسد الإسلام وقديسه»، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٠١.

(٦) البستاني (محمود). «تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي»، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٢٠٩ وما بعدها.

(٧) ابن أبي طالب (علي). «نهج البلاغة» بضبط صبحي الصالح ص ٥١.

تسنمتم العلياء: ركبتم سنامها، وارتقيتم إلى أعلاها. أفجرتم: دخلتم في الفجر. السُّرار: آخر ليلة في الشهر يختفي فيها القمر، وهو كناية عن الظلام. وُقِرَ: صَمَّ. الواعية: الصارخة والصراخ نفسه. والمراد هنا العبرة والمواعظ الشديدة الأثر. ووقرت أذنه فهي موقورة وقرت: صمت، دعاء بالصم على من لم يفهم الزواجر والعبر. النبأة: الصوت الخفي. ربط جنانه رباطة بكسر الراء: اشتد قلبه. أتوسكم: أتفرس فيكم. حلية المغترين: أصل الحلية الزينة، والمراد هنا صفة أهل الغرور. جلباب الدين: ما لبسوه من رسومه الظاهرة. جواد المضلة: الجواد جمع جادة وهي الطريق. والمضلة بفتح الضاد وكسرها: الأرض يضل سالكها. تميهون: تجدون ماء، من أما هوا. العجماء: البهيمة، وقد شبه بها رموزه وإشاراته لغموضها على من لا بصيرة لهم. عَزَب: غاب، والمراد: لا رأى لمن تخلف عني. لم يوجس موسى خيفة: لم يستشعر خوفاً، أخذاً من قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾. توافقنا: تلاقينا وتقابلنا.

(٨) البستاني (محمود). «تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي»، ص ٢١٣.

(٩) ابن أبي طالب (علي). «نهج البلاغة»، ص ٢٤٢.

صدف: أعرض. السَّمت: الجهة. تقصدوا: تستقيموا. مدخول: معيب. معاقد الحقوق: ما مواضعها من الذمم. بادره: عاجله، أي عاجلوا أمر العامة بالإصلاح لئلا يغلبكم الفساد فتهلكوا.

(١٠) البقرة: ٢.

(١١) ابن أبي طالب (علي). «نهج البلاغة»، ص ٣٩ـ ٤٠.

(١٢) ابن أبي طالب (علي). «شرح نهج البلاغة»، م١، ص ٤٣/١ وما بعدها.

(١٣) حاوي (إيليا). «فن الخطابة وتطوره عند العرب»، ص ١٤٣ وما بعدها.

(١٤) الأصبهاني (أبو نعيم). «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م، م١، ص ٦١.

(١٥) ابن أبي طالب (علي). «نهج البلاغة»، ص ٦٩ـ ٧٠.

ـ جُنته: جَنّة الليل جناً وجنوناً وأجنة: سَتَرَه. وكل ما سُتر عنك فقد جُنّ عنك. والجُنان: الترس الجُنَّة (بالضم): كل ما وقى: الدرع للوقاية.

شملة: كساء يشتمل به. اشتمل بالثوب أداره على جسده كله.

دُيث بالصَّغار والقماءة: دَيّث: ذلّل ولين. بعير مُدَيّث: مُذلل، ومنه الدُّيوث الذي لا غيرة له. الصَّغار: الذّل والضيم. القماءة: قمأ وقماءة: الذل والنقيصة.

الأسداد: جمع سدّ: الحُجُب الّتي تحول دون البصيرة والرَّشاد. والاسهاب: ذهاب العقل أو كثرة الكلام بلا فائدة مما يحيل بين الحرء والخير.

أديل الحق: دالى ودالت الأيام: ذهبت ودارت.

سيم الخسف: سيم: أولي. الخسف: الذل والمشقة. فسيم الخسف: ألِفَ الذل وأولي المشقة.

مُنع النّصف: منع حرم. النصف: العدل والانصاف. والمعنى حرم العدل بأن يسلط الله عليه

من يغلبه على أمره فيظلمه. والنصف اسم من الأنصاف وهو أعطاء الحق بقدر الاستحقاق تواكلتم: رجلٌ وَكَلٌ وُوكَلَةٌ وُتُكَلَةٌ وتواكلٌ: عاجز. وتواكلوا مواكلةً وِوكالاً: إتّكل بعضهم على بعض.

إتكل عليه في أمره: إعتمد. وكَلَهُ في الأمر وعلى الأمر: توجّه إليه ثقة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه. تواكلاً: إتكل كُلّ على صاحبه فيه.

مصالحها: جمع مَسْلَحة وهي الثغر.

حِجْلَها وقُلْبَها: الحِجْل بالكسر والفتح، الخِلخال. جمع أحجال وحُجول.

قُلْب: سِوار المرأة. والمراد زينتها.

الرُعْثة (وعِرْك): ما عَلق بالأذن من القرط: جمع رِعاث والرَعثة أيضاً (عَنْون الدِّيك) الناتيء تحت منقاره وهو لحيته.

قَبْحاً لكم وتَرْحاً: قَبّحه الله: صيّره قبيحاً. التَرح: الحزن والفقر. والمقصود بالعبارة دعاء عليهم بأن يُبعدهم الله عن الخير ويُخزيهم ويَسوؤهم.

حَمارّة: شدة القيظ والحر. وحمارة الصيف شدّة وقت المحرة.

ـ يُسبخ: سَبّخ الحر: خفف وسكن وفتر.

ـ صبارة: (بتشديد الصاد وتخفيفه) شدّة البرد. وأم صبار. حر النار.

الحِجال: جمع حِجلة: القبة أو البيت يُزين بالستور. وربات الحِجال: النساء.

السَدم: الحزن والغيظ والهم والندم.

نغب الستهام أنفاساً: نغب (ويضم): النَغب للإنسان جمع نغبه: الجَرعة أو الرّيق يقال: سقاه نغبةً من لبن: أي جَرْعة والجمع نُغب. التهام: شدة الحر وركود الريح وأنفاساً «أي جرعة بعد جرعة والمُراد: أنّ أنفاسه أصبحت هماً يتجرعه. والتعبير بالفتح دلالة على بلوغ الجرح غايته.

ذرّفت: شارفت، وناهزت.

(١٦) حاوي (إيليا). «فن الخطابة وتطوره عند العرب»، ص ١٣٤ وما بعدها.

(١٧) الأعراف: ٢٦.

(١٨) المنافقون: ٢.

(١٩) يس: ٩.

(٢٠) آل عمران: ١٤٠.

(٢١) الأنعام: ١٤٦.

(٢٢) البقرة: ١٥٦.

(٢٣) الحج: ٨٧.

(٢٤) النساء: ٩٥.

(٢٥) التوبة: ٤١.

(٢٦) النور: ٣١.

(٢٧) الزبيدي (مرتضى). «تاج العروس»، التراث العربي، الكويت، ١٩٦٥، م١١، ص ٧٦، مادة حمر.

(٢٨) الزبيدي (مرتضى). «تاج العروس»، م١٧، ص ٢٦٧، مادة سبخ.

(٢٩) المرجع السابق، م٥، ص ٢٥٩، مادة رعث.

(٣٠) المرجع السابق، م٥، ص ٣٥، مادة قبح.

(٣١) الحطيئة (جرول). «ديوان الحطيئة»، ص ٧٦.

(٣٢) الزبيدي (مرتضى). «تاج العروس»، م٧، ص ٢٦٨، مادة سب

(٣٣) المرجع السابق، م١٢، ص ٢٧٨، مادة صبر.

(٣٤) المرجع السابق، م٤، ص ٢٩١، مادة نغب.

(٣٥) الشقشقية: الشِقْشِقَة (بالكسر) شيء يُخرجه البعير من فيه إذا أهاج، وإذا قالوا للخطيب ذو شِقْشَقة: فإنما شبهوه بالفحل.

في صحة نسبة الشِقْشَقية إلى الإمام عليّ يراجع: الخطيب (عبد الزهراء الحسيني). «مصادر نهج البلاغة»، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٣٠٣ـ٣٢٤.

يعدد مؤلف الموسوعة سبعة عشر مصدراً نصت الشِقشقية أو تكلّمت عنها، كتذكرة الخواص لابن الجوزي (ـ ٦٥٤م هـ). كما يعدد أربعة من أمات المعجمات كمجمع الأمثال للميداني ونهاية الأرب لابن الأثير، ولسان العرب والقاموس المحيط. ويذكر أيضاً أحد عشر شرحاً من شروحها، وهذا إنما يدل على صحة نسبة الشقشقية إلى الإمام علي.

(٣٦) القصص: ٨٣.

الاستشهاد بالآية الكريمة يراد منه ترك إرادة العلو في الأرض والفساد، فتعليق الوعيد بترك إرادتها أشد

أنواع الوعيد.

(٣٧) ابن أبي الخطاب (علي). «نهج البلاغة»، ص ٤٨ ـ ٥٠.

ـ لقد تقمصها: أي جعلها كالقميص مشتملة عليه. إشارة إلى أن النبي (ص) نص على ولاية علي وأنه غصب حقه. والضمير للخلافة، ولم يذكرها للعلم بها.

ـ ابن أبي قحافة: أبو بكر، وأبو قحافة: عثمان بن عامر وألد أبي بكر. وكان ما يزال حياً زمن تولى ابنه الخلافة.

ـ محلي منها محل القطب من الرحا: وكما أن الرحا لا تدور إلا على القطب، ودورانها بغير قطب لا ثمرة له ولا فائدة فيه، كذلك نسبتي إلى الخلافة، فإنها لا تقوم إلا بي، ولا يدور أمرها إلى عليّ. أو أنه أراد أنه من الخلافة في الصميم والوسط، كما أن القطب وسط دائرة الرحا.

ـ ينحدر عني السيل: يعني رفعة منزلته كأنه في ذروة جبل أو بقاع مشرف ينحدر عنه السيل إلى الوهاد.

ـ ولا يرقى إليّ الطير: هذه العبارة أعظم في الرفعة والعلو التي قبلها لأن السيل ينحدر عن الرابية والهضبة، وأما هو كمن في السماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها.

سدلت دونها ثوبها: أي أرخيت، يقول ضربت بيني وبينها حجاباً، فعل الزاهد فيها الراغب عنها.

ـ طويت عنها كشحاً: أي قطعتها وصرمتها.

ـ أصول بيد جذاء: أصول: من صال، يصول بالسنان واللسان. واليد الجذاء:

اليد المقطوعة: وربما في هذه العبارة إشارة إلى الخوف من استشراء الردة.

ـ طخية عمياء: طخية: قطعة من الغيم والسحاب، وإضافة العمياء إشارة إلى ظلام الحالة وإسوادادها وفي ذلك تأكيد على الخوف على الإسلام، فاتحاً في المجال أن ينوب المدعون بأحقيتهم بالخلافة.

ـ يكدح: يسعى ويكد مع مشقة.

ـ يلقى ربه: بالوقف والسكن.

هاتا: بمعنى هذه. ها: للتنبيه، وتا: للإشارة بمعنى ذي. وهاتا هنا أليق من هذه وأبلغ.

أرى تراثي نهباً: إشارة إلى أحقيته بالخلافة والتذكير بخطبة عيد الغدير ووصية الرسول بأن علياً ولي الله وقد سبق ذكرها. بالاضافة إلى الإشارة إلى حملة أسامة بن زيد على رأس جيش فيه أبي بكر وعمر قبيل وفاة الرسول، كي يبعد الرسول الكريم أبا بكر وعمر عن المدينة. لكن زيداً تباطىء بالخروج وتمت البيعة بُعَيد وفاة الرسول لأبي بكر، وعلي منهمكاً بإعداد جنازة الرسول، مما جعل تراثه في الخلافة نهباً.

ـ أدلى بها: أي دفعها رشوة. فكان علي يرى أن العدول بالخلافة عنه إلى غيره، إخراج لها إلى غير جهة الحق. فشبّه ذلك بإدلاء الإنسان بما له إلى الحاكم، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه، فجاء في تعبيره من باب الاستعارة.

ـ شتان: أصله شتت. والاستشهاد شتان وأنا في الهاجرة والرمضاء، أسير على كور هذه الناقة، ويوم حيان وهو في سكرة الشراب، ناعم البال. والمعنى أن علياً يقول: شتان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض عليّ من الأمر، ومنيت به من انقطاع الحبل، واضطراب أركان الخلافة، ويوم عمر حيث وليها على قاعدة ممهدة، وأركان ثابتة، وسكون شامل، فانتظم أمره، واطرد حاله، وسكنت أيامه.

ـ فيا عجباً: أصله فيا عجبي. ثم قلبوا الياء ألفاً فقالوا: يا عجباً.

ـ يستقيلها: إشارة إلى قول أبي بكر في أثناء خلافته: أقيلوني فلست بخيركم. والمعنى أن علياً يعجب من أبي بكر كيف يطلب إقالته من الخلافة في أثناء ولايته، ثم يعقدها لآخر عند وفاته.

ـ لشد ما تشطرا ضرعيها: اللام للكثرة، وشد: أصلها شدد. والمعنى أصبح كثيراً وشديداً جداً. وتشطرا ضرعيها: اقتسما فائدتها ونفعها والضمير للخلافة.

ـ حوزة خشناء: أي جهة صعبة المرام شديدة

الشكيمة. ويغلظ كلمها: أي يتضاعف الجرح ويتعمق.

ـ يخشن مسّها: أي تؤذي وتضر وتُنكىء من يمسها. كأنه يصف جفاء أخلاق أبي بكر ونفور طبعه، بعقده الولاية لعمر.

ـ الاعتذار منها: يمكن أن تحمل «مِنْ» على أصلها بمعنى أن عمر كان كثيراً ما يحكم بالأمر ثم ينقضه، ويفتي بالفتيا ثم يرجع عنها. ويمكن أن تكون «من» هنا للتعليل والسببية أي وكثر اعتذار الناس عن أفعالهم.

ـ الصعبة من النوق: ما لم تركب ولم تُرَض. إن أشنق لها راكبها بالزمام خرم أنفها، وإن أسلس زمامها تقحم في المهالك، فألقته في مهواة أو ماء أو نار. أو ندت فلم تقف حتى ترديه عنها فيهلك.

ـ مُنِي النَّاس: بُلِي الناس.

ـ الخبط: السير على غير جادة. والشماس: النفار. والتلون والتبدل والاعتراض: السير على خط غير مستقيم. كأنه يسير عرضاً في أثناء سيره طولاً. وإنما يفعل ذلك البعير الجامع الخابط. وبعير إعتراضي: يعترض في سيره لأنه لم تتم رياضته. وفي فلان عرضية: أي عجرفة وصعوبة.

ـ فيا لله وللشورى: اللام في بالله مفتوحة لأنها للمدعو، وهي في للشورى مكسورة لأنها للمدعو إليه. كأنه يريد القول أن الشورى في أضعف الإيمان حق أريد به باطل. وقصة الشورى مشهورة في كتب التاريخ الإسلامي.

ـ انتكث فَتْلُه: انتكث: انتقض. فَتْله: فتل وجهه عنه صرفه. والمعنى إنصراف الناس من حوله والانقضاض عليه.

ـ أجهز عليه عمله: تمّم عمله قتله، والمعنى أنه قتل بسوء عمله.

ـ كبت به بطنته: كبا الجواد: سقط لوجهه. والبطنة: الإسراف في الشيع. والمعنى أنه سقط متخماً بالبطنة والرشوة وسوء التصرف.

ـ عرف الضبع: مثل يضرب في كثرة الزحام.

ـ يتثالون: يتتابعون مزدحمين.

ـ وطىء الحسنان: وطىء بالضم، والموطي: موضع القدم. والحسنان: إبناه الحسن والحسين. إشارة إلى أنهما ديسا لكثرة الزحام.

ـ ربيضة الغنم: القطعة الرابضة من الغَنَم، يصف شدة ازدحامهم حوله، وجنوبهم بين يديه. وهذا التكرار البليغ لتزاحم المتزاحمين يبايعون بالخلافة، يدل على الإجماع التام بالبيعة.

ـ نكثت طائفة: أصحاب الجمل. ومرقت أخرى: أصحاب النهروان. وفسق آخرون: أصحاب صفين. وسمى الرسول أصحاب النهروان بالقاسطين لقوله لعلي: ستقاتل بعدي الناكثين (أصحاب الجمل)، والقاسطين (أصحاب صفين)، والمارقين (أصحاب النهروان).

ـ شرح نهج البلاغة: م١، ص ٢٠١.

ـ الزبرج: الزينة، من وَشْي أو غيره. والزبرج: الذهب.

ـ فلق الحبة: شقها. برأ النسمة: خلق كل ذي روح من العدم.

ـ لولا حضور الحاضر ربما المقصود: إتمام البيعة مما أوجب الاستمرارية في تحمل مسؤوليتها. أو كان المقصود الجيوش التي أصبحت بإمرته.

ـ يَقَاروا: القرى: مجرى الماء أو السيل: جاء في المثل: جرى الوادي فطم القرى. يضرب في حدوث أمر عظيم يغطي الصغائر ويخفيها، كما يفعل ماء النهر بالطمى الصغيرة. كغلة: بالكسر البطنة، أو ما يعتري الإنسان من الثقل والكرب عند الامتلاء من الطعام والشراب. سغب: الجوع والعطش. يقول: لولا وجود هذه وتلك لتركت الخلافة.

ـ الغارب: الكاهل من الخف. أو هو ما بين السَّنام والعنق.

ـ عفطة: تستعمل في الأصل للنعجة بمعنى ضرطة. ونفطة تستعمل للعنز بمعنى عطسة أو ما تناثر من أنفها. والمشهور أن العنز يعفط وينفط معاً، أي كل عفطة بنفطة، فالخطيب استعار عفطة من الغنم وأطلقه على العنز بمعنى العفط والنفط للدلالة المجازية.

(٣٨) الرحمن: ٢٦.

(٣٩) الأعراف: ٢٦.
(٤٠) الانشقاق: ٦.
(٤١) البقرة: ١١٨.
(٤٢) هود: ٥٨.
(٤٣) الفتح: ١٠.
(٤٤) الأنعام: ٩٥.
(٤٥) الحشر: ٢٤.
(٤٦) البلد: ١٤.
(٤٧) القصص: ٨٣.
(٤٨) البينة: ٨.
(٤٩) الكهف: ١.
(٥٠) ابن أبي طالب (علي). «شرح نهج البلاغة»، م١، ص١٨٤.
(٥١) المرجع السابق، م١، ص ١٦٣.
(٥٢) المرجع السابق، م١، ص ١٧٣.
(٥٣) المرجع نفسه، م١، ص ١٨٤.
(٥٤) المرجع نفسه، م١، ص ١٨٤.
(٥٥) الزبيدي (مرتضى). «تاج العروس»، ص ٤٨٠، مادة عفط.
(٥٦) ابن أبي طالب (علي). «شرح نهج البلاغة»، م١، ص ١٦٧.
(٥٧) ابن أبي طالب (علي) «نهج البلاغة»، ص ٧١.

المضمار: الموضع والزمن الذي تُضمر فيه الخيل، وتضمر الخيل أن تُربط ويكثر علفها وماؤها حتى تسمُن، ثم يُقلّل علفها وماؤها وتجري في الميدان حتى تهزُل. ثم تُرد إلى القوت، والمدة أربعون يوماً. وقد يطلق التضمير على العمل الأول أو الثاني، وإطلاقه على الأول لأنه مقدمة للثاني، وإلا فحقيقة التضمير: إحداث الضمور وهو الهزال وخفة اللحم، وإنما يفعل ذلك بالخيل لتخُفَّ في الجري يوم السباق.

السَّبقة (بالتحريك): الغاية التي يجب على السابق أن يصل إليها.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى